حينما يبكي الأقحوان

الزرارية

أمراء النصر والتحرير

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

حينما يبكي الأقحوان

الزرارية

أمراء النصر والتحرير

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الاسلامية الثقافية

بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

- **قصة قرية:** الزرارية.
- **العنوان:** حينما يبكي الأقحوان.
- **الكاتب:** محمد غالب كجك.
- **الدرجة:** نالت المرتبة الثالثة في مسابقة «القرى الشاهدة والشهيدة» التي نظمتها الوحدة الثقافية المركزية في حزب الله ورعتها بلدية بنت جبيل.
- **الناشر:** جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.
- **الطبعة:** الاولى حزيران ٢٠٠٤م - ربيع الآخر١٤٢٥هـ.

إهــــداء

بلادي، أيا معقـلاً للإبـاءْ   وصرخةُ حقٍّ تصونُ البَشَرْ
حضنتِ الضعاف وقلتِ لهم: بأنْ ينفضوا ذُلَّ عار القَدَرْ
ويقـتلعوا كلّ طاغٍ حـقـيـرٍ   أمـات الزهور وأفنى الثَّـمَـرْ
فـيـا قـومُ لا تَـرْهَبُنَّ العـدا   ولا تسكتوا عن أثيمٍ جَـهَـرْ
وقـومـوا بدينٍ عـزيز قـويمٍ   يبيـد الطغاة ومن قد كَفَرْ
فـدينُ الحسين خـيـارٌ أثيـرٌ   لمن كـان يَـبْـغِـي هَنَاءَ الظَّفَرْ

بالإذنِ مِنْ أبي وأمّي العـــزيزين؛ أهدي كلمـــاتي المتـواضـعـة، إلى من يهـواهُ الـفـؤاد.. صـاحـب العـقـل والقلب..

الإمام الخميني قدس سره

هَمْسُ الشتاء

مضى الشتاء وقامت الطبيعة منتعشة من بين ركام رقدتها..

الشمس الرائعة ألقت بنفسها بين أحضان السماء.. وأخذت تمسح بأياديها الطوال، أشعةَ الأُنْسِ والمحبةَ، على بناتها الكائنات اللواتي مسهنَّ الشتاء القاسي بلوعته، فتشردنَ وتُهنَ تحت أمطاره طيلة أيامه السوداء..

وأهل الضيعة.. كأمٍّ تعانق ابنها العائد.. قد انتشروا بين الآكام المبللة، يُغنّون ويهزجون.. مرددِّين أناشيد فرحهم وسرورهم..

أجل، يغنون ويفرحون، لأن أيام الشتاء في قرى جبل عامل، أيام صعبةٌ مؤلمة.. وأشد ما فيها وحشةً، ألم الفراق والهَجْرِ المفروضين..

فراق الفلاح لقطعة أرضه التي فارقها، ليسقيها المطر ماءً، غير ما تعوَّدت من عرق الفلاح المتدفق من قلب عزمه، وحُنُوِّه..

فراق أشجار الزيتون والخروب الظليلة، لكل موائد التبولة اللطيفة، وللأهازيج والميجنا.. وشَجْوِ العتابا المرافقة لها غالباً..

على أنّ في الشتاء، لقاءً موحشاً ما بين القروي والكسل...

فكلُّ أيَّام الشتاء حروبٌ ما بين الرياح والمطر. وكلاهما يغلقان الأبواب على الفلاح والمزارع.. فيجلس أسيرَ كسله، يأكل ثمار الصيف المتبقية.. قليلٌ من القمح والحمُّصِ، ومخلّل المقتا.. ولقيمات من مربىً أو فاكهة مجففة، من تينٍ وزبيب، ودبس الخروب.

وفي الشتاء، ينسج القَدَرُ في كل مرة حكاية.

ويخيط الزمن بين الأودية المكتئبة أغنيتَهُ الحكيمة..

فأيُّ مساحة، وأيُّ زمن يسمح لجميع عناصر الوجود أن تتحرك بحرية، أفضل من فصل الشتاء؟!

الأرض تبتلع في صَخَبِ الأمطار المنسكبة.. والناس يتلهون، بتكاسل مفضوح، بتدفئة أروقة المنزل..

فها هنا يمتد فم القدر، ويبث في شقوق الأرض العطشى أسرارَ الربيع المنعشة.. وبين أوردة الناس المتجمدة، همسات المستقبل الدافئة..!

وشتاء الزراية، شتاءٌ مميز عن جميع القرى المحيطة..

فصحيح أنَّ لُهاثَ عناصر الطبيعة، ومعارك قواها، وجميع طبائع الشتاء، هي ذاتها في كل القرى..، من ثلج متراكم، ومطر هاطل، وريحٍ مزمجرة، ورعدٍ وبرق متسابقين..

إلا أن قبب المنازل التي يتصاعد منها دخان المواقدِ، تحوي في داخلها كل ليلة أمسية جديدة، تتأجج فيها نار الصوبا،

ويصطف فيها الرجال جنباً إلى جنب.. وتنزوي النسوة على حياد، يُنظِّفْنَ حبات عدسٍ أو قمح، ساكتات على غير عادة.. والأولاد المتشيطنون، هامدين في وسط الغرفة..

حتَّى أنك لا تسمع فيها سوى صوت النارجيلة وطرطقة الرياح على شبابيك البيت متلصِّصة، تسترق السَّمعَ.. وتستجدي النظر..

فالجمع كلُّهم يستمعون إلى حكاية يرويها الجدُّ العجوز، عن أبطال تناقلت قصصهم أبا عن جد، ومن شتاء إلى شتاء..

أو ينصتون إلى جارةٍ وحيدة، تروي لهم رواية، عن دار وأهل، وأبناء وغربة.. أو قصَّةً من قصص الضيعة في قديم الزمان..

هذا وظلالهم المنعكسة من نور الموقد، ترتعش كأشباح فرحانة على الحائط خلفهم.. على رغم سكونهم وتَسَمُّرِهم أمام من يقصُّ الأقصوصة، ويحكي الحكاية..

هكذا كان الشتاء، ملقىً للأحبة والأهل والأولاد ومساحة لا نهائية المدى لقلوب وأرواح ما سكنتها إلا المحبة، وما زيَّنتها إلا الطيبة ودماثة الأخلاق.

وهكذا كان الشتاء.. في قرية ما أتاها شتاء إلا وأتتْ كل الحياة معه..

الزراية.. قرية من قرى جبل عامل..

قرية ألقتها يد القدرة المبدعة، على ظهر تلال تطلُّ بشموخ بين سهول وحدتها..

فمنذ أن كان أول بيت فيها، أخذت تمتدُّ متدحرجة على أكتافها، كطفل يتلهّى أبداً دون أي ملل..

حتى مضى الزمن.. فكبرت القرية، وحنت التلال تحت وطأتها،.. فاندلقت المنازل والبيوت متمسِّحة بالسهول والأودية المحيطة..

«خَلْةِ الحَمْرا»، «المْقَشبِرهْ»، «خَلْةِ الياس»، «وادي العين»، «خلْة اللبّيد»،.. أودية....

إنما هي دهاليزٌ مهولاتٌ رائعات، تجتمع بين جنباتها المياه في فصل الشتاء.. وينسرح الرعاة مع أغنامهم.. والمتنزهون الذاهبون في «رحلة التبولة» مع أغاني الفرح والسرور..

وتنساب روحُ شاعرٍ عبقريَّة تستلهمُ الإبداعَ من عَمْقِ الجمال العلوي الذي يلبس تلك الأودية وتلالها.. في فصل الربيع..

والينابيع أنَّتْ لثقل القرية، فتفجَّرت هنا وهناك.. مبتسمة تعانق تلْكُم الشجيرات المتجمعة.. حاضنة بفرحٍ غامرٍ عمق الأودية والمختفية..

نبعة «راس الذّيب»، و«عين التين»،.. أم «عين النعنع»..

عيون وينابيع إلتحفت تلك الطبيعة الرائعة، فزادت على جمالها جمالاً لا يوصف..

«وعين وادي خليل»، مَنٌ مِنَ الفتية لم يذهب إلى هناك، خفية كل النهار ليأكل زوادة هيَّأها هو على عجلٍ.. أم لينام قرب النبعة، تحت ظلال حورة عملاقة، هي أجمل الأشياء التي تزين ذاك الوادي!

وذاك السهل الوطيء.. ما يسميه أهل الضيعة بالـ«الوطى»، فعلى مساحته الشاسعة المُحمرَة، ينتثر كل ما استطاع الفرح أن يبذره ويزرعه.. سهل أشبه شيء هو بالجنة، وأقرب الأشياء إلى الروعة والجمال..

وعلى حدوده عند أسفل القلعة المسمَّاة بـ «قلعة ميس»، تطفو على سطح الأرض ساقيةٌ «وتسمى الشاغور» عذبة المياه.. وتسير متدفقة عند ممر الوادي.. ساقيةٌ لطالما وقف عندها الرعاة وترنَّموا..

فشدا عندها شاب عشق الحياة، ولمَّا يراها..

وشيخ قد أعجبته وحدة المكان وسكينته وثغاء معزه، فأخذ يُعتِّبُ ويعتِّبُ، منفسا عن أسرار آلامه..!!

ولطالما سَمِعَتْ أقاصيص القرية وأخبارها، وحضنت ما بين طيَّاتها الخجلة ذكراها الجميلة.

ساقية!! ما أأمنك على أسرار البشر..

ويا ساقيه.. ما أشدَّ المحبَّة التي تربطك بهؤلاء الأناس..!!

.. على أنَّ القرية صانت عذرية الوادي المحاذي لهذه القلعة.. «وادي جهنم»، وادٍ تكاثرت فيه أشجار السنديان وتشابكت، ونمت نباتات «العليق» و«البلان» و«القندول» و«السريس» وكبرت.. حتى إنك لا تستطيع الدخول للوادي أبداً..

ولكن، ما أفقد هذا التمنع الوادي جماله أبدا، بل إنك لتطير فرحاً ونشوة لرؤية هذا الوادي من على أعلى جدران القلعة العالية..!

أم هل سأنسى ذِكْرَ النهر.. والقرية إليه كل صيف وربيع تحج..

نهرٌ يسير ملتوياً مقلداً تعرج الأودية التي يسيل فيها..

وعلى جانبيه تترامى الأشجار من كل نوع ولون.. مغطية أعشاباً طويلة خضراء تتمايل متراقصة مع الريح..

وسُمَيْكَاتٍ تتسابق حيية خجلة من ضفة إلى ضفة ويتسابق معها تلألؤها، ولمعة صفحة الماء المترنحة فوقها..

وضفادعُ قد راقتها أصداء دحرجة الحصى المتكومة تحت تدفق المياه، فانطلقت تشدو مترنمة مع إيقاع حفيف الأشجار المتنوعة..

حفيفٌ أقل ما يقال عنه، أنه شاعر قد استعبدته الحياة، فانطلق يغني لِرقّه وجبروتها..

سيمفونية يرتاح لها البال، ويسكن إليها الخاطر.. وتنسجم الروح المتألمة معها، لتثمر سعادةً بالغة الحلاوة..

والقريةُ، إن أتيتها من غربها، لاستوقفك مشهدٌ عظيم الروعة والأبهة.. فهي تبتدىءُ بك بسلسلة تلالٍ لم يجد القرويون إسماً لها يسبغ عليها الجمال، أكثر من كونها تلال، فسمّوها «التّلول».

تلالٌ ما سكنها إلا النسيمُ العليل منتشياً بين ظلال الأشجار.. وتلالٌ أقلّ ما يمكن أن تمنحك، عُلوّها الذي يبسطُ أمام عينيك وذاتك التّواقة إلى الجمال، تارةً منظرَ بحر يعانق بخجل واضح الحمرة شمس الغروب..

وأخرى أضواءً كثيفة للقرى والبلدان التي تنام هانئة بين أحضان الجنوب..

هذه التّلال تعطيك إحساساً رائعاً بالحياة، ومسحةً هائلة النّفاذ ترتسم على روحك المكلومة، بلسماً يداويك بالجمال والروعة..

والقرية.. إن أردت مغادرتها.. بعدما مررت بهاتيك التلال.. فهي ترغمك أنْ تَمُرَّ في جَبَّانَتِها التي تأخذ قسماً واسعا، من منحدر يدعم ارتفاع القرية، لا مفرَّ..

لكي يتذكر المرء دائماً، كلما عليه كرَّ غروب ومرَّ صباح،.. قصَّةَ كل حياةٍ تبدأُ بارتفاع تلة، وتنتهي بمنحدر منتظم إسمه القبر..!

هكذا هو المدخلُ والمخرج، فلسفةٌ مقتصدةٌ في الموت والحياة، يتعلَّمها المرء فتزيده خشوعاً، وتزداد هي رهبةَ وعظمة..!

كانت تلك هي طبيعة القرية.. طبيعةٌ بسيطةٌ هادئة. والسَّكينةُ الرائعة، التي كانت توزعها بشغفٍ أُمُوميٍّ الحياة هناك.. لَهِيَ ذاتها التي تستوطن نفوس أبنائها، وتمسح على أرواحهم طيوبَ بهجتها، وتُشْرِبُهُمْ بيدها من كأس محبتها العلياء..

لذا فهم لطفاءُ طيبون، وسجاياهم الكريمة إنما هي صورةٌ رائقةٌ عن جمال ولُطْفِ الطبيعة التي يعيشون هم بين مساحاتها، وتعيش هي في أعماق نبضاتهم..!

أجل، كان ذاك الشتاء غريباً.. لا للمطر الذي كان ينهمر بشدة، ولا للريح التي ما خلَّت زيتونة إلا وجدلت لها أغصانها المخضوضرة..

بل لأنه، وفي فجر ليلة من أواخر لياليه، والناس نيامٌ في فراشهم الدَّافئة المتلاصقة مع بعضها البعض.. والقرية خالية من كل شيء،.. حتى إنه لا شيء يدلك على خُلُوِّها،

أكثر من ولولة الرياح بين طرقاتها الفارغة.. وطرطقة المطر على نوافذ البيوت المتثائبة.. أخذت الأرض ترتجفُ، والأشجار تهتزُّ، والعصافير التي استيقظت باكراً جداً على غير عادتها، إلتجأت فَزِعَةً إلى زوايا الحارات..

فعلى حين غِرَّةٍ إمتلأت القرية بالجنود والدبابات.. عسكر كثيف لم ينحن عند تلالها مستأذناً للدخول.. ولم يركع قرب سهولها يصلي صلاة إيمان..

بل اخترقها مسرعاً على عادته خوفاً ورعباً، موزِّعاً بين خطواته تعاليم تلموده البكماء.. فتطايرت بعض العصافير التي احتضنتها الأشجار هبةً من السماء، من أصداء ضجيجهم النَّكراء..

ومرَّت دقائق معدودة.. وإذ بالقرية خاليةً من جديد.. وعيون كثيرة ملتصقة بالنوافذ وبين شقوق الأبواب، تنظر متسائلة، ما الخبر؟!

«شباط اللبَّاط.. لبط الجنود والضبَّاط!!».. قالها مُقهْقِهاً «أبو علي»، الشَّيخ السَّبعيني نافخاً صدره من تحت لحيته الكثَّة البيضاء، ساناداً نفسه على عصاه الطويلة السمراء، وهو كعادته في كل صباح، قد زرع بين أصابع يديه لفافة تبغٍ «عربية»، ويبتسم إبتسامة شاب عشريني، إبتسامة شيخ قد نفخت الحياة فيه روحها من جديد.. لجارته التي

كانت تضبط الشَّال على رأسها، وتشدُّ «الكنزة» الصوفية الخضراء السميكة، منتعلة البابوج بسرعة.. لتنتفض بعدها فرحة وسروراً..

وكفراشات تنطلق مبتهجة من بين خيوط شرنقتها إنطلق أهل الضيعة وتجمعوا في الساحة الواسعة التي تزيِّن صدر القرية.

وشوشاتٌ من هنا وهناك، وتمتمات علت في الحال.. وإذْ بالجمع كُلُّهم يصرخون في غبطةٍ عامرة، لانسحاب جيش الإحتلال البغيض من صيدا وقضاء الزهراني، والقرية العزيزة على قلبهم «الزراريَّة».

ولا تَسَلْ بالطبع عن قوافل السيَّارات والزمامير ومظاهر الفرح التي ساهم كل من كان حاضراً في شيء منها.

فكم كان صباحك في هذا اليوم حلواً.. يا شتاء!!

وكم غَنَّتِ النَّسْوَةُ وَدَبَكَ الشباب، في دقائقك وثوانيك العلوية.. وتحلَّق الشُّيوخ مغتبطين، تحت شجيرات الساحة يتحدثون عن ذاك الماضي الذي ولَّى.

وانتشر الأولاد والأطفال في البريَّة، متحدين البرد الذي يلحس وجوههم الرقيقة، ليلعبوا بحرية عزيزة، ألعابهم و«يتشيطنون» براحةِ كل شيطنتهم.. بعد أن كَبَتَ ذِكْرُ الإحتلال ووجوده، طفولتهم البريئة بين جدران المنزل.

وصباحك.. حنون وعطوف.. يا شتاء!

لأنه بك ارتاحت كل أُمٍّ عاشت طيلة أيامها خائفة على إبن لها.. طالما خبأته في «التتخيتة» أو بين «خيش التبن»، بل لربما بين حبات قلبها ونبضاته المتهالكة..

خوفاً عليه من موت أو أسرٍ، وكلاهما بالنسبة إليها هلاك..

ولأنه بك، ستستيقظ كل زوجة بعد اليوم، فتعد «الترويقة» لزوجها، وأطفالها الفرحين بلقمة اللبنة التي سيأكلونها من بين أنامل أبيهم، وحبة الزيتون الخضراء.. بكلٍّ سعادة وطمأنينة وسلام.

رحل الإحتلال عن القرية.. وتنفس الناس الصعداء.. وعادت الحياة تبث دفأها بين ربوع الأرض.. وبين حنايا أبنائها..

«زِهْرُ اللوز» زَهَّرَ وتفتَّح.. والليمون بات سميناً تنوء الأغصان بثقله..

البساتينُ خضراءُ وارفة، والحقول يتمايل زرعها مع الريح جذلاناً، ويتمايل الفلاح معها جداً ونشاطاً..

فأي شيء أسعد على القرية من لحظات حريتها.. وأي شيء يمنحها السلام والطمأنينة أكثر من مشاهد الكرامة والعزّة..

كان جيش الإحتلال، الذي انسحب من المنطقة المذكورة..

قد أحاط بالقرية من جميع جهاتها، اللهم إلا جهة البحر.. فقطع الطريق، طريق «الحمرا»، التي تربط القرية بالمناطق التي تقع من ناحية الغرب، أي منطقة النبطية.. ونَصَبَ متاريسَه فوق مجرى النهر..

فبانت القرية كسَهْمٍ أبيضَ لاذعٍ بين كماشة الإحتلال السوداء..

العدو الغاشم يُضَيِّقُ الأنفاسَ على القرية.. والقرية بصبرٍ وعنادٍ تنتزع أنفاس حياتها وديمومتها من بين مخالبه..

والنهر المتدفق في تلك الفترة من أواخر الشتاء.. وبذات التيار الجارف الذي يحمل بحنان هادر، كل إصرار الينابيع المتفجرة.. يحمل أيضاً إلى القرية إصرارَهَا على البقاء..

والبساتين التي تَدَلَّتْ على ضفَّتَيْهِ.. قد أَرْخَتْ ثمارها على التراب.. تَنْظُرُ وَحْدَتَهَا وسكينتها، وفاكهتها التي تحتضر بين أيديها، وأمام فوَّهة القنَّاص..

أما الشجيرات التي في البستان، فهي ما حزنت على بناتها الذابلات أبداً.. بل إنها أسرَّت للوديان والتلال، أنها قد وهبت ظلالها وأحجامها، لكلِّ عينٍ ويدٍ، ستحرس الضيعة وأهلها..

وكذا كانت كل أمٍّ، تتمسَّكُ بكامل أمومتها وحنانها.. فتلبس ابنها وتطعمه، ومن ثم تدفئُ يديه بين أحضانها

بأنفاسها الوالهة.. كي تودّعه ذاهباً إلى نهرٍ أو برية، قرية ما أو جبل..

لأنها بذلك تشبع كامل أمومتها، بأن تروي بدماء ابنها عطش الحرية للأرض.. ولتصبح هي أُمَّهَا وَمَصْدَرَ عزيمتها..

والبرية التي كانت مسرحاً لناي الراعي الشادي، وخوار بقره.. قد أصبحت مساحة لكمينٍ هنا وهناك.. ونقطة رصدٍ أو منطلق استطلاع..

وفي الليل أم في النهار، فكلُّها أوقاتٌ لن يَجَدِ العدو بينها فَرْقاً كي يَبُثَّ فيها كل بغضه وفساده..

وكلها أوقاتٌ مريحة له إن لم يجد من يرفع بوجهه كلمة موقفٍ، أو عنفوان سلاح!

كانت تلك هي أعطية الشتاء للقرية هذه المرة.. أعطيةٌ ارتجفت لها قلوب الناس فرحاً.. فقبلتها لكن على حذر بثت أسراره يد القدر بين فوضى أفراحهم، أسرارٌ لم تدر الناس كنه كينونتها بين جنبيهم..

هي الحرية التي انتظرتها القرية منذ أن غطت أرض لبنان جيوش الاحتلال الإسرائيلي في حزيران ١٩٨٢..

المشاة والمُدَرَّعَاتُ الجَلْمُودِيَّةُ الجَهُولَةُ.. حطَّمَتْ كل وردةٍ انتصبت في طريقهم تعلن الرفض والموقف.. كل يدٍ رفعت بيرقاً وسلاحاً!!

والطائرات المتوحشة المُنْكَرَة، التي أعلنت للطيور الرائعة التي كانت تزين فضاء لبنان، وتصدح فيه أغانٍ وترانيماً، ورقصاتٍ ملءَ السماء.. هجرتها قبل أيام أوانها!

والأساطيل التي اصطادت جمال شاطئنا البهيج، وأبدلت سجد رماله المتوقدة، سواد لؤمها التي وزعته مراسيل قنابلها!!

لم تنس القرية كل ذلك..

ولم تنس أيضاً الناس، أبناء هذا الوطن..

وكم أضاع لهم هذا العدو الأناني، أحلاماً وأماني لم تكن تكاد تخرج من خباء أرواحهم السعيدة.. حتى قضت شهيدةً، كما أصحابها، على مذبح الظلم والاستبداد..

وكم ذا تكسرت لهم أجنحةٌ.. وذابت عزائم خَفُقِهَا، لأن هذا العدو لا يريد أن يكون هناك أحدٌ يحلق في فضاء معنويات لن يستطيع هو، ولو بعد آلاف الدهور حتى أن يحلم بها.. ناهيك عن الوصول إليها..

ولم تنس القرية كذلك، أبناءها.. أبناء القرية.. والليالي التي ودعتهم فيها وكل مرةٍ ذرفت دموع الوداع الأخير.. وهذه الدموع، إنما هي أصعب الدموع، لأن مجراها ليس وجنةً أو خداً، بل روح تبكي وتتوجّع.. مرسلةً كلَّ مرةٍ معهم، إما سوادها أو نجومها.. ونسيم الحقول.. حراساً أشاوس

صناديد.. حتى أضحى للقرية صدىً طيباً بين القرى العاملية، بجهاد أبنائها وصمودها.. وبنجاح عملياتهم على العدوّ..

فحتّى ما قبل انسحاب شباط ١٩٨٥ الجزئي.. قامت الفصائل المقاومة بجميع فئاتها، بتشكيل مجموعاتٍ عسكريةٍ من شباب الضيعة.. وتوزعت بالتالي مخازن الذخيرة بين شمال وجنوب القرية وشرقها وغربها..

فمن هنا انطلقت الكثير من العمليات، تفجير عبوةٍ أو عملية قنص، قذيفة آر بي جي، أو هجومٌ ما..

فمن هذه العمليات، عمليةٌ على «كوع أنصار» (كوثرية الرز).. والعملية على مكان استراحة الضباط الإسرائيليين.. ومنها عمليةٌ على الحافلة العسكرية الإسرائيلية على طريق عام «أبو الأسود . صور»..

مشهورةٌ كل هذه العمليات ومعروفة، لأنها وقعت في بداية العمل المقاوم في لبنان.. وفي كل منها سقط قتلى وجرحى إسرائيليون، شاهدهم المقاومون بأم أعينهم.. وسقط للقرية شهداء وجرحى من أبنائها في بعضها..

فالقرية نتيجة تحررها، أضحت محوراً زاخراً بالعمل المقاوم..

فتجمع فيها كل من رفَّ في ذاته طيرٌ رأى كوة حريّة، وكلٌّ

من بلغت إنسانيَّته مداها، فقام وبدافع الحفاظ على مستواها الرَّاقي، بحمل السلاح وتهيئة العدَّة..

ولأهمية القرية قصصٌ وحكايات..

فمن حكاياتها المُشَرِّفَة، شهامة أبنائها وكرمهم.. ذلك أن شباط الذي كان في تلك الأيام، كان شباطاً أصيلاً لم يبق ولم يذر.. الناس مغلقةٌ على أنفسها في البيوت هرباً من البرد والمطر..

على أنه في كثير من الأحيان، كان الأهالي يسمعون صوت جلبةٍ وضجيجٍ، لربما هو آتٍ من خربةٍ قريبةٍ من منزلهم، أو منزل مهجورٍ إرتمى أصحابه بين أحضان السَّفر..

فكان يطلُّ صاحب البيت العجوز من نافذته، مستكشفاً مصدر الضجيج.. فما إن يرى مقاومين ومناضلين.. حتى يهبَّ من دفء منزله، واضعاً يده على «الحطة والعقال» خوف الرِّيح الباردة العاتية.. فلا يأتي من عندهم إلا وفي يديه كفٌّ شابٌّ مجاهدٍ.. ولربما إثنين أو ثلاثة.. فينامون عنده سويعاتٍ بعدما أشبعهم الشيخ العجوز أمناً، وأدفأهم محبةً وعطفاً، تعيد إليهم العزم وهم في غربةٍ بعيدين عن أهلهم والدِّيار..

من الحكايات المشرفة..

كان الناس في تلك الأيام، كانت تمد يدها إلى كل من ... تحرير الوطن..

التراكتورات، على قلتها، التي كان الشباب يأخذونها من الضيعة ليلاً، كي ينقلوا السلاح والذخيرة من ضفة ... في عز شباط، إلى الثانية.. والنهر الجاري بشدةٍ فائقة، لطالما هدد الجرار وسائقه بأن يجرفه مع تياره..

عمليةٌ شديدة الخطورة كانت هي.. وبطلها فتى[1] لطالما إصراره هو دافعه نحو الأعمال الخطرة، التي ربما تمنُّ بالشهادة.. فلم يحفل لا بنهر هائج، ولا بقنَّاصين ملاعين، كمائن عدوَ..

وتلك الأيام..

لطالما كنت تسمع فيها، بين الكواليس، بأن الحاج فلان قدَّم حمل بعير، مليءٍ بأطعمة من شتى الأنواع، لم يوفرها لدكانه وربحها.. بل أعطاها لشابٍّ تسلَّل على حماره من قريةٍ مجاورة محتلَّة، عبر الوديان والتلال.. ليأخذ طعاماً لمقاومين..

أجل، كانت تلك مواقف مشرفة، لأن الناس الذين كانوا يقومون بها.. لم يكونوا ليخافوا من عينٍ ولسان، باعهما صاحبهما لعدوٍّ شرسٍ قذر.. ولا من مجرَّد فكرةٍ بأن الاحتلال سيعود يوماً لينتقم منهم..

أجل، كانت مواقف جيِّدة.. لأنَّه وفي ذاك الزمن الذي

---

(١) حسن حمود مروة.

تهاوت فيه الناس أمام الجيش الذي لا يقهر، وتهالكوا قدّام زيف جبروته.. وقفوا هم، وبرغيف خبزٍ أو ملجئٍ ما.. أعلنوا الموقف والمبدأ..

قدموا الخبز، ودماً يلثمه التراب ويحضنه.. أبناء القرية البررة، ذهب منهم شهداء، تفتقدهم اليوم قريتهم، إلا أنّ سلواها بهم، رايات النصر التي ترف الآن على بوابات الحدود مع فلسطين.

فمن الأمهات الصابرات «أم محمود» التي كانت تنظر إلى «القجة» التي بين يديها.. ومن ثمّ ترمق صورته المعلّقة على الحائط.. وتبكي مخفية دمعها بين طيّات كمّها..

يا لحلاوة وجهك يا محمود[1].. ويا لهفي على هذه البسمة التي تعانق وجهك، كم ستعذبني عندما أرى صورتك كلّ مرة.

محمود.. هذه «القجة»، لم تسلم من كرمك وشهامتك.. وأنت الطالب الذي هو بحاجة إلى كل قرش لدراسته.. أعطيت ما ادخرته كلّ الصيف لرجال المقاومة..

أمّه تتذكر عندما رحل عنهم إلى بيروت كي يكمل دراسته.. وكيف هبّ من هناك كي يساعد المجاهدين..

وتتذكّر أنّه كلّ الأوقات التي انتظرته فيها كي تعانقه

(١) الشهيد محمود ضاهر.

وتضمه.. وتذكر أيضاً حينما عادت جثّته إلى القرية بعد أسبوع من استشهاده.. ألم يكفي قلبَهَا كل أوقات الحياة كي تعذبها، وبعد الممات تبقى أسبوعاً تنتظره كي تضمّه تلك «الضمّة» التي خبأتها له أياماً طوال..

تلك المعركة التي دارت على طريق الساحل.. والتي كان هو، على صغر سنّه، قائد مجموعتها.. لم تُبْقِ ولم تذر، من القافلة الإسرائيلية التي مرّت من هناك، حديداً ولا بشر..

الكلّ يذكر كيف كان يقاتل بشراسة.. وكيف أمر مجموعته بالإنسحاب، بعد أن اكتشف حجم التعزيزات الهائلة التي استقدمها العدو.. وكيف بقي هو لوحده في الميدان، يقاتل الجحافل لوحده.. كالقاسم ﷺ.. بقي يقاتل حتّى وصل حبّه للّه إلى تمامه.. فاستشهد هناك بعيداً عن أمٍّ له وأهل وقرية..

«محمود».. كم تفتخر قريتك بك.. وكم تلهج الوديان باسمك.. أنت، أنت الذي بعثت في شباب بلدك روح الجهاد والمقاومة..

واعلم، يا محمود، أن العدو الذي احتجز جثّتك أسبوعاً كاملاً كي يعلم من أنت، يا بطل.. هو ذاته الذي دخل قريتك فيما بعد وقتل أهلها ومدر بيوتاً ومنازل.. فيا ليتك كنت هناك يومها، تدافع عنها وتقاتل..

كان ذاك محمود الفتى، والقرية حضنته، وأولدت مكانه يسار..

«يسار»[1].. هل أدري ما يتمتمه الحبُّ على شفتيكِ من كلمات!!

«يسار»!!

وكيف أُسْمعُ الناسَ ترانيمَ الإيمان التي كان يرنِّمُها، بهدوءٍ، النبضُ الهادر الذي بين جنبيك..

أم هل ستنسى الشمس أياديك الصغيرة الدافئة، التي لطالما كانت تنثر على كل من حولها.. ورود حنانها وعطفها..

وما أحكي!!

أعن عينيكِ الحزينتين.. ودمعِ عاشقٍ عابثٍ تناقل من جفنٍ لك إلى جفن، يندب أسرَ وعذاب الأرض؟!

أم عن أحلامٍ كانت تزيِّن روحك كما كل فتاة، أبت، إلا أن تقضي ذبيحةً بين دمائك الشهيدة.. كي يغدو الدَّمُ والحُلُمُ، شرابَ الأرض الذي منه تنتعشُ!!

أم.. عن الحارات والوديان والروابي، التي لم يبق فيها ذات غصنٍ أو رحيقٍ، إلا ولمست يداك أطرافها المحزونة.. أو عجوز تبكي خلف باب.. أو فتىً يبكي أباه الذي أطال

---

(١) الشهيدة يسار مروة.

الغياب.. وفقيرٍ يعاند العَوَزَ ويصارعه.. إلا ومددت يديك.. ملأى بحبَّات الحبِّ والكرم..

«يسار»..

فتاةٌ من قرى جبل عامل.. كلها عزمٌ وفتوةٌ ونشاط.. وهدوءٌ غريبٌ أقل الأشياء التي كان يظهرها لمن حولها، أنه نابعٌ من حكمةٍ وذكاءٍ عميقين..

فتاةٌ من جبل عامل.. تفاجأت كما كل العصافير التي اضطرت إلى الهجرة باكراً.. تفاجأت بشيءٍ بغيضٍ ثقيلٍ اسمه إسرائيل.

لكن «يسار»، لم تكن ذاك العصفور الذي يحب الهجرة أو الاختباء في ذات غشه.. بل كانت روحها دائمة الخفق والنبض، تشتعل حماساً، لم يكن أي شيءٍ ليمنعها من أن تطير وتحلق.

وحكايات «يسار» في تلك الفترة، كانت من أجمل الحكايات وأروعها..

فمن حكايات شجاعتها الفريدة..

أن عملها المقاوم آنذاك، كان يتَّسمُ بتمام السرِّية والاحتياط، حتى أنَّ أخاها، أخاها الذي ما تأخرت خطاهُ عن خطاها.. والذي تنقل معها أينما توجهت، هو ذاته يقول ويعترف بأن كل عملها المقاوم وبطولاتها التي ضجَّت

بقصصها القرية، لم يكن ليعرف هو شيئاً عنها إبان حياتها.

فمرةً أتت إليه صبيحة يوم.. تطلب منه أن يعيرها الـ«بيك. آب» الذي كان موجوداً في بستان أهلها على النهر.. «لما البيك. آب؟!».. يسألها مستغرباً.. فترد عليه بإماراتٍ ملؤها براءة.. «بدي تاجر بالكنار».. وتنطلي التجارة هذه ليس فقط عليه، بل على جنود الاحتلال وحواجزهم أيضاً.

فتاةٌ شقراءُ بيضاءُ كفلقة القمر.. تقود «بيك. آب» محمَّلاً بأقفاصٍ من عصافير الكنار المغردة، أجل المغردة.. تغنّي أجمل أغاني الحياة، وتحتها أسلحة ومتفجرات، وذخائر تغني أيضاً بصمتٍ، أغنية الحياة الخاصة بها أيضاً.

وهكذا كانت «يسار»... جنباً إلى جنبٍ، وكتفاً لِصُقَ الكتف، تشارك رجال المقاومة الأوائل... إن كان في نقل الأسلحة والتمويه، أو المشاركة الفعلية في القتال.. كعملية طريق المنصوري.. التي فجر فيها المقاومون عبوة بأفراد الدورية.. ومن ثم أجهزوا عليهم، و«يسار» معهم، تباعاً برشاشاتهم.

حتى مضى الزمنُ.. و«يسار» تزداد نشاطاً وبهجةً، ويزداد وجهها ألقاً.. فَلَكَأَنَّ الروحَ الوضاءة التي في داخلها، قد مَلَّتْ جدرانَ بدنها المادي، فأخذت تطل من بين سُبُحَاتِ وجهها نحو السماء، تدعو وتبتهل.. بأن ينزعها اللّه عن

متعلقها المادي الذي يمنعها من العروج نحو بارئها، غاية مناها..

مضى الزمن.. وقررت مجموعتها أن تُذيقَ العدوَّ ضربةً قاسيةً أخرى في ذات المكان «المنصوري»..

هناك.. عندما ترجَّلا، هي ومقاوم آخر.. أَحَسَّتْ بالقلق يهمس في أذنها محذراً.. الصمت المطبق الغريب، عجَّل في صُوَرِ انهيار العملية في ذهنها.. وفيما هي بين التقدم والتفكير.. لمحت علبة سجائر مكتوب عليها بالعبرية ملقاة على الأرض، وببديهةٍ سريعةٍ علمت أن الكمين أطبق عليهما..

فنادت زميلها للهرب..

وما يعني الهَرَبُ أمام رصاصةٍ تنقض دون أي رحمة.. رصاصةٌ أتت، وأخذت معها «يسار»... البنت الحلوة التي أحبَّتها القريةُ وناسها، والأرضُ التي من أجلها قدمت حياتها ودماءها..

عادت «يسار».. شهيدة احتضنتها بلدتها.. وتحملَّت غضب الاحتلال الذي ضاق ذرعاً بهذه القرية التي ما فتئت تقدِّم الشهداء والمقاومين.. واحتضنت معها سراً غريباً، سوف تفصح عنه الصفحات التالية.

واستمرت الحال على هذا المنوال، حتى صبيحة يومٍ من

آذار، وإذ بالقرية تهتز مجاوبة صوتاً قوياً أتى هادراً من ناحية قرية «أرْزَيّ»..

«ما الحكاية؟!».. نسوةٌ كنَّ يجلين الصحون خارج الدار..

«ولم كلُّ هذه الطائرات التي هبطت على سماء الجنوب فجأة، وفوق فضاء هذه المنطقة بالتحديد؟».. وأخذهنَّ السؤال بعيداً إلى أعمال القلق..

إنفجار هائلٌ ثانٍ، يماثل الأول قوةً.. وغرقت القرية في غياهب المجهول..

وفي المساء.. عاد «نعمة»[1] ورفاقٌ له، يضحكون ويتهامسون، والفرح الذي تملك وجوههم، قد ألبسهم طابعاً غريباً في هذا اليوم بالتحديد.

كانت تلك عمليةً مظفرةً شهيرةً، عبوتان نسفت أولاهما «الوليس» المحمَّل بالجنود، والجيبَ الذي معه.. وتنوعَت الإصابات في باقي الدورية الإسرائيلية الضَخمة..

والثانية، مزّقت قوات الدَعم والإسعاف التي أتت تترى إلى مكان الحادث..

«نعمة» كان يراقب عن مسافة أمتار قليلة، في داخل «جبّ بلان» ضخم، كيف تمزّقت القوّات وتشتّت، وكيف انطرح أرضاً ضابطٌ كبير ذو رتبةٍ عاليةٍ صريعاً..

---

(١) الشهيد نعمة هاشم.

لم تمض أيامٌ قليلة، حتّى عرف العدوّ أنّ القرية أضحت كلّها سلاحاً ومقاتلين، وأن أكثر العمليات التي تحصل في القُرى المحيطة، إنما منشؤها في «الزراريّة».. عديداً وعتاداً وذخيرة..

وكان أنّ ابن الضابط الإسرائيلي المقتول، هو أيضاً يعمل كمسؤول في جيش الاحتلال..

وبعد مقتل أبيه، قام يصرّح ويرعد ويزبد، بأن قتلة أبيه، وأهالي قرية «الزرارية»، سيذوقون الويل ويُطْعَمُونَ الأسى.. وأنَّ الجيش الإسرائيلي سيؤدب قرى الجوار بما سيفعله بالقرية!!

حكاية الشَّفَقْ

كان يلفحه الهواءُ.. وستائرُ الليل المظلمة تتحرك جيئةً وذهاباً، كأمٍّ ثكلى بين أضرحة أحبَّتها.. مغلقةً أمام عينيه ذلك المدى الرحب من السهول والتلال..

وآذار، مانح الربيع لهذه البلاد.. قد أتى عاصفاً وبارداً، وكأنه يعلن تبرأه من ربيعه المعهود..

جَمَّعَ غنيماته ومعزه في زريبته الشتوية.. وأخذ الكلاب إلى سياجه الهشّ.. وجلس ينتظر الفجر..

هنيهات مرّت، والطبيعة تسرّ في أذنيه أسراراً مطلسمةً، غرق هو في أشكالها المزخرفة، ولم يفق إلا والكلاب قد

انتصبت مزمجرةً مكشّرة عن أسنانها.. وتبحلق بخوف نحو الوادي. سمع الراعي هديراً متوحّشاً.. وطرطقة وقعقعة لم يستطع تبيان مصدرهما.. لكنّه علم أنّ الطبيعة لا تؤذي بأصواتها أذنيه كما تفعل هذه الأصوات..

ومضى ينظر نحو الوادي.. منتظراً شمس الصباح!!

والراعي لم يعلم بأن من حوله، ليس «الذيب» بل ألأم منه، وليس «الواوي» بل أخوف منه..

أمّا الفجر، فإنه قد أتى يسحبُ وراءه شَمْسَهُ المتثائبة.. ينثر هنا وهناك بضعاً من رقع النور والضيّاء..

وبعض بيوت القرية كانت تنفتح أبوابها لثوانٍ ومن ثمّ تغلق بسرعة.. وفي داخلها يتمدد شبابٌ قد أرهقهم الليل العاصف.. وأوجع أكتافهم حمل السلاح..

وينامون مطمئنّين بعد أن حرسوا قريتهم طيلة يومين بليلهما ولم يغمض لهم جفن..

ساعَةُ الفَجْر..

حتى العصافيرُ بالكاد تكاد تَخْرُجُ من أعشاشها، والورود لمّا يتزحلق على بتلاتها الناعسة الندى فيوقظها من عمق رقدتها.

ساعةُ الفَجْر..

الطبيعة تركع في محراب السلام والأمن.. تصلّي،

تسجد وتركع خاشعةً، أن يحفظ اللّه روعتها وبهجتها المتميّزة..

وفي هذه الساعة.. كان الشتاء قد أظهر للناس مفاعيل هَمْسِهْ... العدوّ قد أحاط القرية من كلّ جهاتها..

مشاةٌ يزحفون من ناحية قرية «أنصار»، ويمرّون من خلال منطقة «السيّار»، ومن ثم يعتلون «ضهر هيدوس».. ومجموعات منهم قطعت النهر و«وادي العين» وانطلقت تصعد نحو القرية..

ودبابات هائلةٌ أتت تدبُّ من ناحية قرية «بريقع» والبحر، وتمركزت بعض الآليات عند «التلول»، وقرب «دَيْرُ مِيْمَاسْ»..

والتفّ العدوّ حول هذه الضيعة الراقدة بسلام..

إنّه الغَدْرُ..

وليد الأنانية المبتذلة.. وخصلةٌ في النفس تستر ضعفها وهشاشة مظهرها..

إنّه الغدر.. سلاحٌ مهلكٌ لمن يوجّه إليه، ومدمرٌ لمن يوجهه أيضاً.. لأنه يزيد في قناعة النفس بأن تتصرّفَ كَلِصٍّ حقير.. وأن تختبئ وراء غشاء مرضها الغليظ الذي لا دواء له..

مضت ثوانٍ قليلة.. والخامسة والنصف فجراً، قد دقت ناقوس الخطر.. فتجاوبت الوديان مع أصداء إنذارها..

مجموعة مقاومين، كانوا يكمنون قرب جبانة القرية..

والهواء العاصف الذي كاد يرمد أعينهم كلّ الليل، هو ذاته عندما طلع الفجر.. نقل إليهم أصوات الآليات وقعقعة السلاح، وضجيج المشاة..

وما هي إلا دقائق، وقافلةٌ ضخمةٌ من الدّبابات تتقدّمها «ميركافا» هائلة، مصوّبةً مدفعها الضّخم نحو الضيعة..

وقام الشباب عندئذ بإطلاق النار من رشاشاتهم الخفيفة، معلنين بهذا السلاح المتواضع عنفوان قريتهم التي أقامتهم درعاً لها، وأقاموها هم رمزاً للحياة..

أطلقوا النار حتى قاربت ذخائرهم على النفاذ، وخارت قواهم.. والعدو قد لامست قواته جدران الجبانة.. فتراجع الشباب وتواروا لينتظروا فرصة يقتنصوها..

وفي هذه الأثناء، كانت هناك، في كلّ بيتٍ، زوجةٌ قد دخلت باكيةً غرفة زوجها الذي لم يكد يصل إلى البيت وتغلق عيناه.. وارتمت عليه، ممسكةً بيدها السلاح وبالأخرى سترة الشتاء..

وقامت تشدّه وتدفعه.. قم.. اذهب.. العدوّ في الضيعة..

فاستنفرت القرية، وهبّ الشباب منطلقين نحو تخومها يتصدّون للتقدّم..

كان الوقت يتقدّم، والمعركة تزداد ضراوة، والعدو تزداد خسائره.. مما اضطره إلى أن يأتي بالمزيد من التعزيزات..

والعـدو الذي حـاصـر القـريـة.. كـان قـد زرع في جـمـيع مـحيطها قناصين مَهَرَة، بحيث أن كل حيٍّ كان يطلّ برأسه من وراء جدار آخر بيت في القرية، كان يقتل فوراً..

إن كان مزارعاً قد خرج إلى حقله باكراً وهو لم يدر بما قد حصل تحت جنح الظلام.. أو امرأةٍ عجوزٍ قامت تحطتب لتشعل تنوراً يمدّها بالخبز عدّة أيام.. أو فتى قد انسرح مع غنيماته في البرية..

وعند «البَصّ»[1] .. إصطفّتْ دباباتٌ عـــدّة.. ومن بين صفوفها نزلت فرقة من الجنود نحو الوادي.. وفي التلة المقابلة كانت هناك امرأةٌ قد وضعت صحونها وأوانيها في أرض الدّار، تجلي قليـلاً ومن ثمّ تنظر إلى الأمـام، ومن بعدها تنحني على جهازها اللاسلكي وتنادي المقاومين، أصبح الإسرائيليون هنا في تلك التلّة، وهناك في ذاك الوادي.. وغاب عنها أن لدى العدو جهازاً يكشف مصدر الموجات اللاسلكيّة..

كانت تنظر إليهم يبحثون في المنزل، يكسّرون لها بكل همجية أثاثه، بشيء يشبه الفأس.. ويحطّمون كلّ ما وقع تحت أيديهم من أوانٍ وخزفيّات.. حتى تلك الصحون القليلة التي بين يديها.. لم تهتمّ كثيراً لذلك، حتى إذ

(١) المدخل الغربي للبلدة.

وصل الجنود قرب «التبانة»، بدأ قلبها يَنْبِضُ بشدّة.. لكن ما كاد الجندي يبدأ بقلب أكياس «الخيش»، حتى ناداه الضابط، وانسحبوا خائبين..

وهي، ما كادت تراهم ينسحبون، حتى خلعت عنها وقار المرأة العجوز، وقفزت نحو «التبانة»، وأخرجت الجهاز مجدداً، ونادت للمقاومين بحرقة.. إنّهم آتون إليكم..

ولم تخف أن يكتشفها العدو الإسرائيلي مرةً ثانية، ولو عادوا وحطمّوا لها كلّ بيتها.. المهمّ أن يبقى المقاومون سالمين..

وبعد ذلك، دخل العدو بجنوده الضيعة وانتشروا فيها.. وأخذوا يعيثون فيها فساداً.. الغدر الذي أعانهم فجراً، هو ذاته الذي به دخلوا على كلّ بيت، وقتلوا كلّ شخص عاندهم، وآذوا..

كان الإسرائيليون يدخلون إلى كلّ حارة بسرعة خاطفة.. تتقدّمهم ميركافا هائلة الحجم تزمجر وترعد.. وخلفها مجموعة من الجنود يمشون ملتصقين بالحيطان.. كفئران خائفة، وعيونهم تغور بعيداً في محاجرها. كما تَنْسَابُ الحَيَّةُ الهاربة. في كل مرةٍ يتناهى إلى أسماعهم أصواتٌ، أو لربما هي إلى أشباحها أقرب..

ولكم آذاهم هذا الخوف ومزّقهم..

فأهل الضيعة كثيراً ما كانوا يسمعون ويرون جنود العدو يطلقون النار على بعضهم البعض.. لمجرّد صوتٍ بسيط خاف منه أحدهم، فأخذ يطلق النار بعشوائية مفرطة..

هكذا يحيق المكر السيئ بأهله..

وكانوا في كلّ حارة..

يتكومون على أبواب البيوت.. يطرقون الباب بأحذيتهم العسكرية، والآذانَ بأصواتهم اللابشرية النّكراء..

فإن فتحت لهم امرأةٌ، دفعوها بأكتافهم وطرحوها أرضاً.. وإن عجوزٌ، أكالوا لها السابا والشتائم.. أما إذا كان «حاجاً» ذو «حطة وعقال» قام مستطلعاً الخبر، دفعوه أرضاً واندفعوا في المنزل وهم يدوسون على حطته التي انطرحت معه على التراب..

ومن ثمّ يتسربون في المنزل.. جنديٌّ يقلّب الأغطية والملاءات، وحتى السرير بذاته.. وجنديان يفرغان «التتخيتة» التي صرفت عليها ربّة المنزل ساعاتٍ طوال من العناية والترتيب..

و«النّملية» التي تكاد تكون مملوءة.. منمّقة ومنظمة.. لا تكلّف الجندي إلا بضع لكمات وركلات همجية.. حتى يختلط الحابل بالنّابل..

الزّعتر، الذي أهدى إليها دواراً هائلاً وهي تنقب عن

وريقاته طيلة النهار هو والسّماق.. ومن ثم تنقيةٌ ودقٌّ لا تسل عن عذاب المرأة فيهما.. هذا الزعتر يختلط بالسكر والملح والطحين والأرز.. و«السّميد» أيضاً.. وهو له حكاية كحكاية الزعتر والسّماق، بل هي بالتأكيد أصعب.. فيصبح مخلوطاً عجيباً غريباً لا تدر أي الأسماء تسبغه عليه..

كان ذلك التفتيش في غاية العبثية.. والجنود بمنظرهم الموحش، سلاحهم المدجّج، العتاد والذخيرة المبالغ في حجمهما، والتي كان يحملونها على أكتافهم، كبزّاقة خضراء هائلة هبطت من كوكب آخر.. والألسنةُ المندلعةُ على صدورهم، وكأنها بيارق تعلن تمام ضعفها وتعبها.. إنما كانت أكثر الأشياء التي تُلْقِمُ الرُّعْبَ لأفئدةِ أطفال صغار ظنّوا أنّ صباحهم هذا اليوم، هو صباح آخر ليلعبوا في مساحات ضوئه..

وكان أكثر الأشياء تخويفاً لفتاة لم تعتد رؤية غرباء يدخلون منزلها بكلّ فظاظة وانتهاك!

وفي زاوية من الزوايا، كانت هناك امرأة تراقب عن كثبٍ هذا التفتيش البغيض.. ورأت أن هذا الجيش الفوضوي يسرق كل ما يجده من مال وجواهر، كل ما خف وزنه وغلا ثمنه.. فقامت تسرع الخطى نحو «الزريعة»، واقتلعت النبتة التي فيها من جذورها، حافرة حفيرة صغيرة في وسطها..

ومن ثم خبأت في ذاك الفراغ، «صيغة الخطبة»، وهدايا زوجها الغالية، ورزمة من الأموال كانت تخبؤها ليوم الحاجة..

خبأت بين حبات التراب الرطبة، ذكرياتَها الجميلة التي لطالما كان لها وقع عظيم النشوة على قلبها، كلّما وضعت في يدها «أسوارة» أو عقداً بالغ الجمال والروعة..

كانت تخفي تلك المرأة بين حبّات التراب، علامة استفهام كبرى وكلمات كثيرة من التعجب والاستنكار عن هذا اليوم الذي لم يوفّر لأي امرأة أو فتاة لحظة أمنٍ واطمئنان..

على كلٍّ، مَرَّ التّفتيش على البيت بسلام.. وسلمت هي وجواهرها من أياديه «الطوال»!

يدخلون البيوت بوحشية..

وعلى سطوح البنايات والمنازل العالية المشرفة على الضيعة.. كانوا يزرعون قنّاصاً أكثر الأشياء التي يكرهها، الأشياء المتحركة..

حتّى خزان القرية، خزّان المياه الأصْفَرِ القديم، والذي كان يعلو في وسط القرية مطلاً على وديانها وتلالها، وعلى القُرى المحيطة أيضاً.. كمنارة تكشف عن الملاح والسفينة اضطراب اللجّة..

حتى هذا الخزّان لم يوفّره العدوّ من قناصيه.. فربضوا فوقه، يوزعون مع المياه العذبة التي يبثّها الخزّان في

القرية.. رصاصاتِهم التي سَقَتْ كل حي أمامها من كأس موتها الزؤام..

ما أبشع ذاك المشهد وما أثقله وطأةً على القلب.. ذاك الإسرائيلي فوق الخزّان، يعلو فوق أرض القرية وأناسها، فيلزم الناس ذل الأسر المفروض في بيوتهم.. والأرضَ أن تطأطئ هامتها خوفاً على أولادها من موتٍ وشيك!!

وقرب الخزّان.. امرأة قلقة الملامح.. تنظر إلى الدّمار والخراب الذي حولها.. تلتفت يمنة ويسرة.. تبحث عن قريب لها أو عزيز، كي تحضنه بأحضان الطمأنينة والسّلام.. لم يترك ذاك اليوم سؤالاً وشكاً إلا أطعمه إياها على طبق الهواجس والظنون.. تغطّي وليدها بيد، وحلقة الباب بيد أخرى.. وتمعن النظر قليلاً، ثم تخبر النّسوة التي خلفها بأنّه لا أحد في الحارة..

حتى مضت لحظات قليلة.. وإذا بالمرأة تنساب وتركض مسرعة نحو منزلها.. الإسرائيليون يحاولون خلع الباب..

صرخت هذه المرأة بعنفوان وتحدٍّ، مجاوبةً سؤال الضّابط.. فاحمرّ وجه الضابط غضباً، وأمَرَ بتفتيش البيت..

المرأة حضنت طفلها باضطراب وتوجّس.. ظَنَّتْ زوجها هنا، لكن الحظ كان قد ابتسم لها هذا اليوم بالتحديد، بعد أن أعرض عن بيتها ردحاً طويلاف من الزمن.. لم

يجدوا زوجها، ولو وجدوه لقتلوه.. ولبكت ليلها وحزنت دهرها عليه..

قرقعةُ جنزير الميركافا.. إنّما هي حشرجة أرضٍ تئنُّ تحت ثقلها.. ودبيب الجنود فوقها، كأنه وقع مشي مشيعين في جنازة هائلة..

القذائف حولهم أبواقٌ مهولةٌ تصرخ في أذن الحياة مرثية الموت المضطربة..

والرصاص.. إنما هي أنفاسٌ لاهثة يئنها الكره والبغض، لتقضي على كلّ رسمٍ للمحبّة يبتسم أمامها.. طفلاً يحمل وردة.. فتاةً تحضن بسمة.. أو شاباً يغنّي حلماً.. أو أماً قامت تنشر منديلاً متخماً بعصارة الدموع..

خرجت النسوة من ذلك البيت المهجور اللواتي اختبأن بين جدرانه..

أصوات إنفجارات عدة هائلة، خرقت مسامعهن التي لم تعتد سماع سوى أصواتٍ رقيقةٍ ولطيفة.. من أغاني القرية حتى همسات البلابل لأوراق الشّجر..

الإسرائيليون يدمرون المنازل.. يفجرون ذكريات جميلةً حواها كلّ منزلٍ تفجّر.. زغاريد ليلة العرس، وألوان الورود التي تناثرت على العروسين..

صوت أول طفلٍ صرخ لمرأى الحياة وحباً لها لحظة

ولادته.. الأفراح والأحزان.. الحلو والمرّ.. كلّها أصبحت تحت الركام..

كأنها أغنيةٌ متلعثمةٌ تدندنها شفاه الألم تحت قطع الغضب المتكسّرة..

وهُرعت النسوة نحو جهة أتى منها صوت انفجار قوي هائل..

وفيما هن يمشين متسللات من حائط لحائط.. بخطوات سريعة يتقافز بينها نبضات قلوبهن.. أخذن يرين قطرات الدماء على الطريق، فاتبعنها، حتى وصلن، والخطُّ قد أضحى بحيرة صغيرة قانية تتوزع فيها، عشيبات خضراء يانعة تلطخت معظمها بالدم.. قد أصبحت جدائل ثخينة ممزقة بين أصابع شاب مزقت ظهره رصاصات عدة.. مزقه الغدر بقبضته، فانطرح أرضاً يحاول الوصول إلى شجرة أمامه للاختباء.. والقنّاصُ يضربه برصاص الغدر في ظهره..

نظرت النسوة منذهلات إلى هذا المشهد الأليم..

الدّم المتجمّد على سيقان الأعشاب وكفّيه، قد صار أقوى لحُمَةً تجمع بين إرادة الحياة المتربعة في عزائم كفّه، وبين الحياة كلّها التي رآها الشاب تبتسم له بين حنايا الأعشاب..

ارتمين عليه يبكينه ويندبنه.. أمّا القنّاص، فإنه تبسم ساخراً، وأدار ظهره إلى جهة أخرى، بحثاً عن صيد آخر يفترسه..

وفيما هنّ يولولن رأين جنود الإحتلال يسرعون في الإختباء والابتعاد عن أحد البيوت..

لحظاتٌ مرّت بطيئة.. وإذا بصوتٍ هائل انفجر بوجههن، مرتدياً عباءةً مهولة من غبار كثيفٍ توزّع في ذاك المكان.. وإذا بالسّقف قد علا عدّة أمتارٍ في الهواء، وخبط على الأرض بقوةٍ، لكن من جهة السطح، على الأرض..!

ذهبت وهلة الإنفجار الأولى.. وانقشع الغبار عن شيخٍ وعجوزٍ تقف بإزائه، وقد ألبسهما الغبار ثوبين من بياضٍ.. لكأنهما دمعتان نقيّتان تجمدتا عند ملامستهما للأرض، فأضحتا كما التمثال، يغنيان أغنية التاريخ المكتئبة..

أغنية الخوف والرفض لحزنٍ مفاجئٍ ثقلت عليهما ضيافته، وهما في آخر العمر ومنتهى العنفوان..

يا للسّماء..

أيّ جريمة ارتكبها ذاك الشيخ، وظهره المحدودب والعصا الطويلة، كم سيحتملان بعدُ مصاباً بعد مصاب..

والمرأة العجوز ما ذنبها؟! وعيناها اللتان قد خفت ضوؤهما، وذابت أوتار حنجرتها.. وهي تبكي لياليها على

أولاد لها سرقتهم الغربة، مخلّفة وراءها وحشة وسكينة بكماء تستوطن الديار.. ما جرمها؟!

لا جريمة ولا إثم.. غير أنّهما ابنا هذه البلاد الطيبة، لا جريمة!!

لم يكن هذا المشهد هو الوحيد ذاك اليوم.. ففي كلّ حارة وحيٍّ.. ترى دمعاً ودماً، وحزناً وألماً..

نساءٌ تبكي متعلقات بأزواجهن الذين قد يرونهن بعد هذا اليوم وقد لا..

وأطفالٌ يختبئون تحت الأرائك وبين الأسرّة.. يلعبون لعبة الخوف بدل «الإختفاء»..

وشبابٌ يساقون زرافاتٍ إلى الساحة، كهيئة يوم الحشر.. العجائز قد غطين وجوههن بأكفّ الدعاء، ودموع وبكاء..

الطرقات التي كانت مسرحاً للحياة قد أصبحت مقفرةً قاحلة.. إلا من بعض قططٍ منزوية قد مسها الخوف بأنيابه، فقامت تهدده بالمواء..

أمّا الوديان والجبال، فإنها قد باتت قبوراً طبيعية لأجدثٍ تناثرت هنا وهناك.. الكهوف والمغاور التي حفرتها الطّبيعة في الجبال.. قد أصبحت أبواقاً عظيمة الوقع، لأصداء تأوهاتٍ وأنينِ مقاومين، قد جُرحوا فاختبأوا يضمدون جراحاتهم بين ستائر الظلمة فيها..

تلك الربوة وراءها شهيد.. وذاك المنحدر خلفه دماءٌ طازجة لما تتجمّد بعد، ولربما لن تتجمّد أبداً..

وتلك الخلّة قد لبث عندها شبابٌ قد نفذت ذخيرتهم، فترامـوا حول الأسلحة الفارغة، يهمسون للأرض بأنّهم قد فعلوا المستطاع وبذلوا كل الممكن..

والآن هم سينتظرون مع أرضهم الغالية، إما شهادة وأما نصراً، أو حرية تبعثهم للجهاد من جديد!!

انتصف النّهار.. وتربعت الشمس وسط قاعة السماء.. الرياح العاصفة صباحاً، استحالت نسيماً بارداً يلسع الأبدانَ.. والأرواح المتعبة..

علا صوتٌ من أبواق المآذن.. يدعو الناس إلى التجمع في الساحة.. مهدداً ومتوعداً المتخلّفين..

الناسُ.. اندلقت كلّها من منازلها في الشوارع.. غضباً وحزناً وتوجساً، كلّهم يريدون أن يعلموا ما الذي دهى القرية في هذا اليوم..

منهم من ذهب بسرعة كي يعلم من بقي له حياً ومن قد تركهم إلى وداع.. ومنهم خرج خوفاً.. ومنهم ثورةً.. والكلّ قد طغى في مساحات روحهم، صوت ذلك الإسرائيلي يقول لأهالي «الزرارية» بأن يجمعوا «٤٠» قتيلاً لهم منتشرين في الشوارع والبراري..

الساحـة قـد طُوِّقت بالآليـات والجنود.. والناسُ في وسطهم يشتعلون غضبـاً.. كأن القرية بركان قد توسطت حممهُ فوَّهَتهُ السوداء..

الشباب والرجال قد عُصِّبت أعينهم، وكُبِّلت أيديهم.. واصطفوا في صفوف طويلة.. البعض منهم أجبروهم على النوم ووجوههم ملتصقة بالأرض، والدنيا آذار، والوقت وقت مطر ووحل..

وانهـال الجنود عليـهم ضـرباً بالبنادق وبالأرجل وبالعصيِّ.. سبّاً وكلماتٍ نابيةً.. مجبرين البعض على خلع القمصان في ذلك البرد القارص.. هكذا أراد الإسرائيليون إذلال الشباب.. بالقيد والضرب والسباب!

وكأن القيد يمحي عنفوان الرجال!! والعيون التي تُمنع من النظر، تُمنع أيضاً من رؤية الحق وتمييز الباطل؟!!

ليت العدو يعلم.. بأنَّ القصة كلَّها إنَّما هي قصة حبٍّ لا غيـر.. القلب الذي يحبّ الناس، ويهوى الأرض.. وقبل أيّ شيء هو مـتيمٌ بحبّ اللّه.. فإن أنت سَلَبْتَ عن القلب يداً وعيناً، وسمعـاً ونطقاً.. بل سلبت كلّ أعضائه والجسدَ.. فإنّه لا ينفكّ عن الحبّ والمحبّة.. ولن تنفكّ المحبّة عن أن تعلن الثورة على من يعاديها فيكره ويبغض ويقتل..

سياراتٌ محروقةٌ ومحطمة هنا، ناسٌ تبكي حول جثّة شهيدٍ هناك.. وجريح يطلب العون من أي أحد..

وكان هناك فتاةٌ قد انتظرت ذلك اليوم ليكون فيه عرسها وفرحة الحياة.. وقفت على فستانها الأبيض و«طرحتها» البيضاء الطويلة «المكشكشة».. هذا الفستان هو ذاته الذي جرّبته أمام المرآة البارحة؛ فأعجب أمها وصديقتها بنت الجيران.. وجلسن يتحدثن عن سعادة الفتاة حينما تنتقل للعيش في بيت زوجها.. قد أصبح اليوم قطعاً ممزّقة حمراء.. و«طرحتها» قدّت قطعتين وتلوّثت بالدّم..

وأي دم هو؟!! دم إسرائيليين كانوا قد أصيبوا في الاشتباك الذي حصل أمام منزلهم..

مسحت دمعها بيد، وجمعت تلك القطع المشرذمة بأخرى، ورمتها، رمتها خارجاً، خارج ذكرياتها وعلبة صور المستقبل التي كانت ترسمه.. وقامت تجمع ما ادخرته من نقود لتعطيها يوماً إلى رجال المقاومة.. فأجمل الأعراس أصبح عندها، أن تعود الحرية للناس.. وأن لا تصاب أي فتاة ما أصابها من حزن وغم..

الساعة السادسة مساءً.. بدأت السماء تتلبّد بالغيوم من جديد.. فأزاحت الشمس جانباً، ورمت الهواء بعيداً في الأودية والسهول..

الشمس الراحلة بدأت تزحف على جدران القرية.. فأضحى للأخيرة ظلالٌ طويلةٌ سوداءَ على الأرض.. كأنها أشباحٌ ماردة..

والصمت الذي تعمَّدَتْ الطبيعةُ أن تفرضه في ذلك الوقت، قد أصاب القرية بسكينة خرساء وهمود عجيب..

العدوّ الذي خاف على نفسه من المبيت بين مساحات هذه القرية الغاضبة، بدأ بحمل الشباب في الحافلات والباصات..

وقامت آليات تتسرب مترهلة على الطرقات.. كعجائز سئمت منها أنفاس الحياة فغادرتها.. والجنود المتعبون من القتل والنهب والإستبداد.. إنفتلوا وراء الآليات وفيها، مطأطئي الرؤوس تعباً وسخريةً من نصرٍ واهٍ لم يشعرهم بأية عزة وافتخار.. فما يعنيه لهم ضربهم لشيخ أو عجوز، أو تفجير بيت أو دهس سيارة.. لا شيء أبداً، إلا شيئاً واحداً، وهو أن هذا اليوم كان قد أكد لهم وبشدّة، أن كل ما فعلوه، هو كل ما يجيدونه.. الغدر والتوحش.. هكذا تكون نتيجة العطش إلى انتصار موهوم..

أما القرية فبعدما رحل العدو عنها.. فإنَّ الناس كلهم انتشروا في البراري والطرقات يبحثون عن جرحى وقتلى..

كثيرٌ من الأهالي ذهبوا إلى مستشفى «علاء الدين» في بلدة «الصرفند» الساحلية ليروا أبناءهم، أحياءً كانوا أم

أموات.. وعند أحد البيوت المدمرة.. جلست امرأة عند قطعة من أنقاضه.. تضحك وهي تنكت في الأرض.. تنظر إلى البيت المهدم تارة، وتبتسم أخرى.. لأن هذا البيت الذي طالما كان منطلقاً لرحلات زوجها الجهادية، والذي حوت زواياه الكثير من هذه الذكريات.. أبى بعد تفجيره إلا وأن يبقى منه شيءٌ عربون وفاءٍ وهدية وداعٍ لأهل كانوا قاطنيه في يوم أمس.. فلذا وفي وسط ركامه وأنقاضه، بقي هناك عامودان كبيران قد أمالهما الإنفجار عن بعضيهما، فبرزا كعلامة النصر التي يعقدها «أطفال الحجارة» بأصابعهم الصغيرة إيماناً وتحدٍ ويقين..

حينما يبكي الأقحوان

وفي الجنبة الأخرى من القرية.. في وادٍ اسمه «المقشبرة».. كانت هنالك عدَّةُ نسوةٍ ومعهنّ شيخٌ كبير العمر.. يبحثون عن شابٍّ قيل لهم أنه استشهد في هذا المكان..

وقفوا عند باب الوادي..

يا سبحان الخالق على كلّ هذه الروعة والجمال..

مشهدٌ من مشاهد الجمال، يُثيرُ في النفس كل كآبتها الكامنة، وينطقها بعد أن كانت خرساء..

الطبيعةُ المنفردةُ تلك بين هامات التلال، قد لَمَسَتْ

كُلَّيَتَهُمْ بيد من لُطْفٍ وحنانٍ مشتعل.. ضغط على مآقيهم، فوجدوا أنفسهم على حافة البكاء..

هو الإنسان، عندما يقف أمام منظر من مناظر العودة إلى أصل الكينونة والوجود.. أمام الطبيعة التي من عناصرها أتى.. فإنَه لا يشعر إلا بقلبه يمجّد أسماء اللّه وبالغ روعة خلقه.. إيماناً وتصديقاً..

اقتربوا كلّهم من حقل أقحوانٍ، قد ألقاه آذار هذه السنة بين صخورٍ متشبّثة بالتلال.. مساحةٌ لطيفةٌ بيضاء، والأقحوان الأبيض ببتلاته الزاهية الرائقة، بين حلقة من العشب الأخضر.. بان كقلادةٍ بالغة الروعة في جيد فتاة.. أو كمملكة صغيرة من الأكف البيضاء المبتهلة إلى العلاء..

شدّهم ذاك المكان.. وكأنه يوشوشهم، يبوح لهم بسرٍّ خطير.. بأن الشهيد الذي يتراءى للناس موته، إنّما هو أكثر الكائنات حياةً.. فأينما يكون الشهيد تكون الحياة وتبتهجُ..

نزلوا إلى تلك البقعة.. فرأوا أن هذه الورود التي أعجبهم بياضها ورونقها.. إنما هي أزهارٌ ورديةٌ لطيفة.. لم يكن أهل القرية ليروا مثلها في هذا المكان من قبل..

اقتربوا أكثر.. فبان لهم أن هذه الورود تميل مترنّحة

نحو الشرق.. كأن أحداً كان قد سُحب عليها.. كأنَّ أحداً قد وهبها ثقل محبّته..

نظروا إلى طرف هذا الحقل.. نظروا جيداً.. فوجدوا أن بعضاً من الورود قد تكومت على نفسها وما بينها مثل الشياب..

هُرعَ القوم إلى هناك، فرأوا جثة شهيدهم[1] تحتضنه أكفُّ الورود بشدّة.. كأنّها تضرب جذورها عميقاً في شراييه، ممتصّةً من نزفها الحياة.. وتشرئبُ نحو السماء.. فهي أجمل وردة سقاها دمُ شهيد.. تعلن أنَّ الشهداء هم ملح هذه الأرض وترابها، ومن كانت هذه عناصره، فإن النَّصر سيكون هو حليفه.. سيكون حليفك يا أرض..

والحمد للّه رب العالمين

هوية قرية

أنا قرية من قرى الجنوب.. اسمي أسبغ عليّ لمقولة أن «زرارة بن أعين»[2] كان يسكن بين ربوعي في قديم الزمان.. أو لأن «أزرار» الورود والأزهار تتكاثف وتنتشر على طول مساحاتي الواسعة، في فصل الربيع.

---

(١) الشهيد حسّان مروة.

(١) زرارة بن أعين، أحد تلامذة الإمام الصادق عليه السلام والثقاة المقرّبين.

أولادي، اليوم، آلافٌ مؤلفة.. الكثير منهم مغترب في بلاد الإغتراب الواسعة.. والباقي منهم أحضنه بين ذراعي، يعاندون الزمن، ويحبون الحياة ويحيون للأمل..

وأولادي اليوم.. طيبون لطفاء، تعمر قلوبهم المحبة لبعضهم، ولي.. لذا فهم متعاونون متحابون، يؤثرون بعضهم البعض بلقمةٍ وكلمة محبّة وقطعة ثياب!!

واحلم عندما أنام.. أن تصبح أمي، الكرة الأرضية، مرتعاً للحق والسلام، ومساحةً لتحقق الأحلم.. والرضا من رب الأنام..

أهدي هذا العمل المتواضع، إلى جميع من سقط من الشهداء في هذه المجزرة، وأخصُّ شهداء بلدتي بالتحية والاجلال:

١ ـ علي محمد مروة (أبو نزيه).

٢ ـ على يوسف أرسلان.

٣ ـ رضا علي مروة.

٤ ـ حسن حمود مروة.

٥ ـ أحمد علي جزيني.

٦ ـ محمد علي مروة.

٧ ـ حسان نعمة حلّو مروة.

٨ ـ نعمة شريف هاشم.